

المحاضرة السادسة خلافة المهدي 158 – 169 هـ

مات المنصور – كما سبق القول – بالقرب من مكة وهو في طريقه لأداء فريضة الحج ، وأحتفل بتأبينه وأخذ البيعة لابنه المهدي .
ويفهم من النصوص أن الذي أخذ البيعة للمهدي هو ابنه موسى ((الهادي)) وكان من بين الحاضرين عدد من كبار رجال الدولة ، وبعض عمومة الهادي بل يذكر أن عيسى بن موسى ، ولي العهد الثاني ، كان حاضرا بدوره وكان مترددا والنص يقول : " أبى من البيعة " ولكنه بايع .

ووصل نبأ وفاة المنصور الى المهدي الذي كان ببغداد في منتصف شهر ذي الحجة وأرسلت اليه إشارات الملك وهي : بردة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) والقضيب وخاتم الخلافة .

وفي بغداد تمت البيعة الثانية للخليفة الجديد وهي " البيعة العامة " واولى المشاكل التي اعترضت المهدي هي ولاية العهد ، فقد كان موسى هو ولي العهد الثاني ، ومر عيسى بن موسى بنفس المحنة التي عرفها في عهد المنصور ، فقد تعرض للاضطهاد والتهديد والترغيب ومحاولة أقتاعه عن طريق الفقهاء والقضاة فخلع نفسه في اوائل سنة 160 هـ ، وباع للمهدي ، كما بايع ابنه موسى الهادي بولاية العهد . ثم جلس المهدي في الغد ، وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ، وخرج الى الجامع ومعه عيسى بن موسى فخطب الناس وأخبرهم بخلع عيسى والبيعة للهادي فأسرع الناس لمبايعته .

اما عن العلويين فلا تذكر الروايات انه قام بأعمال عنيفة ضدهم وكان المهدي كما تقول الرواية محببا الى الخاص والعام لأنه افتتح امره برد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وأنصف المظلوم .

الا أن المهدي كما يفهم من النصوص أستثنى بعض العلويين من العفو وهو الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي مما اضطره الى الهرب من سجنه وافلق ذلك الخليفة ولكن الامر انتهى بطلب العلوي الأمان من الخليفة فأمنه المهدي ووصله .
وأطلق المهدي كما تقول الرواية داود بن طهمان ، الذي كان ينصر ابراهيم في البصرة وقرب ابنه يعقوب بن داود تقريبا شديدا واستوزره وقرب داود بدوره الزيدية من العلويين " فجمعهم و ولاهم امور الخلافة في المشرق والمغرب " وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الشاعر بشار بن برد الى أن يقول بيتيه المشهورين :

بني أمية هبوا طال نومكم
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
أن الخليفة يعقوب بن داود
خليفة الله بين الناي والعود

والظاهر أن الخليفة أدرك خطورة أمر ترك مقاليد أمور الدولة الى وزيره فتخلص منه فسجنه وذهب بصره في السجن ، وبقي محبوسا حتى عهد هارون الرشيد ، اذ شفع اليه فيه يحيى بن خالد فأمر برد ماله ، وأختار يعقوب الإقامة في مكة فأقام بها حتى مات في سنة 187هـ .

- موقف الخوارج

كان الخوارج يلجئون كعادتهم الى القيام بأعمال العنف والشدة من ذلك ما تذكره النصوص من قيام ثورة خارجية بخراسان في سنة 160هـ تزعمها رجل يعرف باسم يوسف بن ابراهيم ويلقب " بالبرم " وقد قيل أنه كان حروريا وأستطاع التغلب على بوشنج ومرو الروذ والجوزجان ، ولكن جيوش الخليفة استطاعت القضاء على الثوار والقبض على يوسف هذا الذي سيق الى الرصافة حيث قطعت يداه بها ورجلاه وقتل هو أصحابه وصلبوا على الجسر .

وفي أواخر هذه السنة قامت ثورة خارجية أخرى بنواحي الموصل ، ينفرد بذكر تفصيلات دقيقة عنها خليفة بن خياط في تاريخه ، كما ينفرد بإيراد نص الرسائل المتبادلة بين الثائر الخارجي عبد السلام اليشكري والخليفة وقد سببت حركة اليشكري – الذي استولى على معظم ديار ربيعة – الكثير من المتاعب للدولة ، وذلك قبل أن يقضي عليها ويقتل زعيمها .

- حركة المقتنع

أما عن الحركات المذهبية التي اشتهرت بها خراسان منذ مقتل أبي مسلم فقد خرجت على أيام المهدي ثورة كبيرة قام بها رجل يعرفه الكتاب بلقب " المقتنع " وهذا الرجل كان يؤمن بالتناسخ وأسم هذا الرجل هاشم وهو من مرو الروذ ، وأعتنق فكرة التناسخ والحلول فقال : " أن الله خلق ادم فتحول في صورته ، ثم في صورة نوح " وهلم جرا الى أبي مسلم الخراساني ثم تحول الى هاشم وكان هذا يعني أن روح الله قد تقمصته وعلى ذلك يقول بعض الكتاب انه ادعى الألوهية . وبدأت الدعوة التي قام بها المقتنع في منطقة كش ونسف – من ارض ما وراء النهر – والتف حول جمع كثير وأيده أعداء الدولة من أتباع أبي مسلم الذين عرفوا بالمبيضة ببخاري والصغد ، وساعد هذه الثورة قيام الثورة الخارجية في خراسان ((ثورة البرم)) وكذلك أعانة الترك الذين استنجد بهم فتمكن المقتنع من السيطرة على الأقاليم

وفي وقت قليل ، كما أستطاع أن يحقق عددا من الانتصارات على قوات الخلافة التي سارت ضده . وكان الرجل يظهر أمام الناس مرتديا قناعا ، هذا القناع منسوج بخيوط الذهب حتى يبهل الأبصار عن طريق إشراق الأنوار الإلهية كما كان يدعي . وتقول النصوص أن أتباعه كانوا يسجدون له ، ولهذا السبب عرف بالمقنع وربما كان السبب في ارتدائه ذلك القناع هو محاولته اخفاء ، تشويه وجهه . اذ تقول الرواية " أنه كان اعور " .

وبعد عدة حملات كللت بالظفر استطاعت الجيوش العباسية هزيمة الثوار في منطقة بخارى بعد أن ضيقوا عليهم الخناق وحاصروهم حوالي اربعة أشهر ولكن المنهزمين لم يستسلموا اذ لحقوا بالقوات الرئيسية للمقنع وطالت المناوشات طوال سنة 160هـ دون جدوى في السنة التالية وهي سنة 161هـ تجمعت قوات الخلافة وتقدمت نحو الثائر وشدت عليه الحصار حتى أضطر كثير من أتباعه الى الاستسلام وذلك بعد أخذ الأمان سرا منه وبقي المقنع في قلة من أصحابه زهاء الفين ، وعندما أيقن بالهلاك أضطر الى القاء نفسه هو وأهله ونسائه وخواصه في النار وذلك بعد أن احرق كل ما في قلعه من دابة ووثوب وغير ذلك ، وتقول الرواية أنه قال:
من أحب أن يرتفع معي الى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار .

ورغم القضاء على الفتنة ، وقتل أمير بخارى ، فإن ذلك المذهب ظل باقيا في كشم وبعض قرى بخارى ونهاية هاشم الغريبة هذه كانت سببا في افتتاح من بقي من أصحابه كما تقول النصوص . والملاحظ ان مؤرخينا الاوائل يسعون دائما لتشويه أي ثورة تخرج ضد السلطات الحاكمة مع ان هذه الثورات كانت تظم الألوف من الثوار الغاضبين بسبب ما كانوا يقاسوه من اوضاع متردية تدفعهم للخروج وكانت هذه الثورات تنعت بالخارجية تارة او بالزندقة والمروق عن الدين تارة اخرى.

والمهدي " جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الأفاق وقتلهم " . كما تقول الرواية انه قال لولي عهده الهادي وقد قدم اليه زندقيا فقتله وأمر بصلبه يا بني اذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصابة يعني أصحاب ماني ، فأنها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا ، والعمل للأخرة ثم تخرجها من هذا الى التحريم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا ، ثم تخرجها الى عبادة اثنين احدهما النور والاخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الاطفال من المهد لينقذوهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرده السيف فيها وتقرب بأمرها الى الله .

وفي ذلك الوقت عهد المهدي بالتفتيش على الزنادقة الى موظف خاص يعرف باسم المتولي لأمر الزنادقة أو صاحب الزنادقة وتذكر الرواية أن أول من تقلد هذا المنصب الجديد هو عمر الكلواذاي (1) الذي توفي سنة 168 ، فولى مكانه محمد بن عيسى بن حمدوية الذي كان عنيفا " فقتل من الزنادقة خلقا كثيرا " .

ولا شك في أن تهمة الزندقة هذه كانت تحقق للخليفة ولعماله هدفين في وقت واحد أول هذين الهدفين هو التخلص من الأعداء السياسيين والثاني كسب حب الشعب .
وهناك نصوص نستشف منها ذلك فعندما يود الخليفة التخلص من وزيره يرميه بالزندقة وتذكر الرواية أن المهدي عندما تجهز لغزو الروم في سنة 163 هـ أرسل وهو بحلب فجمع من تلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين .

ونهج خلفاء المهدي نفس السياسة فوجها تهمة الزندقة الى كل من أرادوا التخلص منه بل والى كل أصحاب الآراء التي لا ترضي الخليفة .

أما عهد المهدي فهو عهد ازدهار ورخاء . وقد قصد بابه الشعراء فأكرمهم وأغدق عليهم . ويرجع الفضل الى المهدي في إنشاء شبكة من الطرق وكذلك تحسين نظام البريد وعلى أيام المهدي غدت مدينة بغداد المحطة الرئيسية لتجارة الهند . وبفضل اهتمام الخليفة ازدهرت الصناعة وأهتم المهدي اهتماما خاصة كما تقول النصوص بالحرمين فأمر ببناء المحطات للقوافل على طول الطريق الى مكة وأمر ببناء المصانع ((الصهاريج)) لخبز المياه ، وحفر الابار ، وقلد هذا العمل لموظف خاص اطلق عليه " صاحب المصانع " كما أمر المهدي كما تقول الرواية في سنة 167 هـ بإقامة البريد بين مكة والمدينة وكذلك بينهما وبين اليمن "

ولم يكن هناك بريد قبل ذلك " وعلى ايامه جددت كسوة الكعبة ، كما أمر بالزيادة في المسجد الحرام ومسجد النبي (صلى الله عليه واله وسلم) (سنة 167 هـ) فدخلت فيه دور كثيرة . كما امر برفع الحصار الذي فرضه ابيه المنصور على اهل المدينة للتكامل بهم وتجويعهم .

وعلى عهده ايضا تم بناء مسجد الرصافة وسورها وخذقها ، كما زاد في مسجدي البصرة والموصل .

وتنسب اليه النصوص أنه وضع في سنة 162 هـ ديوان الأزمة كما " أجري على المجذوبين وأهل السجون الأرزاق في جميع الافاق " .

- السياسة نحو بيزنطة

وكانت سياسة المهدي ازاء بيزنطة ، نفس السياسة التقليدية للدولة العربية الاسلامية وينسب للمهدي تجهيز حملات قوية ضد بيزنطة ولكنها لم تحرز انتصارات حاسمة .
ففي سنة 163 هـ تذكر الرواية أن المهدي تجهز بنفسه وأعد عدة عظيمة وجمع الأجناد من خراسان وغيرها ، وخرج على رأس قوات كبيرة، وكان بصحبته أبنه هارون ((الرشيد)) بينما استخلف على بغداد ابنه موسى ((الهادي)) وسار الى الموصل والجزيرة

ومن هناك عبر الفرات الى حلب ، ثم رافق ابنه هارون حتى جاز الدرب (أي الممر) المؤدي الى أرض الروم ، وهناك ودعه وعاد أدراجه ليزو رببيت المقدس .

وسار الرشيد بأرض العدو وكان بصحبته عدد من كبار القواد منهم عيسى بن موسى والحسن بن قحطبة ، كما كانت أمانة الحملة من أمور العساكر والنفقات والكتابة موكولة الى يحيى بن خالد الذي كان كاتب الرشيد وأغلب الظن أن هذه الحملة لم تأت بنتائج كبيرة وذلك أنها تمكنت من فتح احد الحصون فقط بعد حصار اكثر من شهر ، وفي سنة 164هـ أي سنة التالية ردت بيزنطة بأن تقدم البطريق ميخائيل وتحدي الصائفة الاسلامية التي اضطرت الى الانسحاب وعادت مما أثار سخط المهدي على قائد الصائفة حتى أنه رغب في قتله .

وترتب على ذلك أنه في سنة 165هـ سير المهدي ابنه هارون ((الرشيد)) على رأس حملة عظيمة بلغت حوالي ((95 الف رجل كما تقول الرواية)) والظاهر أنها لاقت نجاحا اذ أن القائد البيزنطي اضطر الى الانسحاب أمام هارون الذي توغل هو والخراسانية في أرض الروم الى أن وصلوا الى خليج البوسفور . وخافت ايرين ((امرأة اليون كما يقول ابن الأثير)) الوصية على أبنها قسطنطين السادس واضطرت الى عقد الصلح أو الهدنة لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع الجزية السنوية ، وسينقض البيزنطيون هذه الهدنة قبل حلول اجلها وذلك في أواخر سنة 168هـ قبل وفاة المهدي .

المهدي أهتم بالمشرق حتى بلاد الهند وذلك أنه أرسل حملة بحرية الى هذه البلاد 169هـ وكانت هذه الحملة تحوي الكثير من الجند النظامي والمتطوعة ، وهاجمت هذه الحملة إحدى المدن الساحلية الهندية ، وخربت معبد المدينة البوذي " البد " وعاد المسلمون محملين بالأسرى والمغانم ولكن الحملة انتهت نهاية أليمة قرب ساحل فارس اذ عصفت بها الرياح فتكسرت معظم المراكب .

موت المهدي

وفي سنة 169هـ مات المهدي ، بعد خلافة دامت عشر سنين وترك الخلافة لابنه موسى الذي تلقب بالهادي .

علاقة المهدي بالعلويين

كان المهدي يكن في اعماقه البغض الشديد للعلويين ، أما مظاهر ذلك العداء فهي :
إغداق الأموال على انتقاص العلويين :

وصرف المهدي الاموال الضخمة على انتقاص أهل البيت والحط من شأنهم ، وقد عرف فريق الشعراء المرتزقين أن الوسيلة في ثرائهم هي انتقاصهم لأهل البيت والمبالغة في ذمهم فراحوا يلقفون الأكاذيب في هجائهم ، ومن جملة هؤلاء العبد بشار بن برد المعروف بالزندقة والإلحاد فقد دخل على المهدي وأنشده قصيدته التي يقول فيها :

يا ابن الذي ورث النبي محمدا الوحي بين بني البنات وبينكم ما للنساء مع الرجال فريضة أنى يكون وليس ذلك بكائن	دون الأقارب من ذوي الأرحام قطع الخصام فلات حين خصام نزلت بذلك سورة الأنعام لبنى البنات وراثه الأعمام
--	---

فأجازه المهدي على ذلك بسبعين ألف درهم تشجيعا له ولغيره من باعة الضمير على انتقاص أهل البيت ، لما سمع الأمام موسى الكاظم (عليه السلام) بقصيدة بشار تأثر أشد التأثر ونام ليلته قلقا متألما وقد سمع هاتفها يتلو عليه أبيات تعارض ابيات بشار هي :

أنى يكون ولا يكون ولم يكن لبنى البنات نصيبهم من جدهم ما للطلق وللتراث وإنما وبقي ابن شلة واقفا متلدا أن ابن فاطمة المنوه باسمه	للمشركين دعائم الاسلام والعم متروك بغير سهام سجد الطليق مخافة الصمصام فيه ويمنعه ذوو الأرحام حاز التراث سوى بنو الأعمام
--	---

ولما شاع ذلك عن المهدي أخذ الشعراء يتقربون إليه في هجاء أهل البيت فمنهم مروان بن أبي حفص فقد انشد بين يديه هذه القصيدة التي يقول فيها :

هل تطمسون من السماء نجومها أو تدفعون مقالة من ربكم شهدت من الأنفال أخر آية	بأكفكم او تسترون هلالها جبريل بلغها النبي فقالها بترائهم فأردتهم أبطالها
--	--

فلما سمع المهدي ذلك زحف عن مصلاه حتى صار على البساط وهو لا يملك نفسه قائلا له :

- كم بيت هي ؟
- قال مائة بيت

فأمر له بمائة الف درهم ، وقال له : ((أنه أول مرة أعطيها لشاعر في خلافة بني العباس)) .
لقد وهب هذه الاموال الخطيرة للحط من شأن أهل البيت والتقليل من أهميتهم ، وهو لم ينل مع باقي أسرته مركز الخلافة الاسلامية ألا باسم العلويين وجهادهم وتضحياتهم .